الفصل الخامس

مميزات الصبي المصري

يقول الفلاحون في أمثالهم أنه عندما وزع الله سبحانه وتعالى الأرزاق على الناس خرج كل منهم متبرما بنصيبه غير راض عما ناله وانه عندما وزع العقول خرج كل انسان راضيا مغتبطاً .

والمصريون راضون عما نالهم عند توزيع العقول يحمدون الله على عطيته لهم قانعون بنصيبهم .

لقد رمانا الكتاب الغربيون بكل تهمة قالوا اننا جهلاء وفقراء ومتعصبون وقساة رمونا بالاستكانة لكل من يريد أن يظلمنا ويتحكم في شؤوننا الفردية والاجتماعية ورمونا في نفس الوقت بالفوضى والميل الى عدم الخضوع لقانون أو وضع اجتماعي يعيبون علينا القذارة في الملبس والمأكل وفي الأبدان قالوا اننا سريعو التهيج لا نملك أعصابنا عند ما نستثار فنأتي من الأعمال ما لو قد ضبطنا أنفسنا ما أتيناه زعموا أننا مستسلمون للأقدار فنرضى بالقليل من العيش ، نكتفي بما دون الكفاف لأننا نكره السعي والعمل ونؤثر الراحة عليهما قالوا اننا شعب غير أمين وأن الخطف والسرقة وامتداد اليد لمال الغير أمور عادية عندنا .

قالوا كل هذا وغيره كثير مما لا يقع تحت حصر وقد امتلأت به كتبهم عن مصر وهي كثيرة تعد بالمئات وانماشيء واحد لم يقولوه على ما نعلم فيما قرأنا لهم — وهو كثير — انهم يتهموننا بالغباء لا يذكر الكاتب أنه قرأ لأحد منهم ما يشعره بأننا شعب غبي قليل الذكاء لا بل على الضد من ذلك نذكر أننا قرأنا كثيراً عن ذكاء المصريين وبخاصة عن أطفالهم ولا يغيب عن ذهن القارىء أن الكاتب الأجنبي لا يعنى أبناء الطبقات الراقية

الموسرة المتعلمة عندما يتحدث عن أطفال المصريين ، فعندما يعني أحداً من هؤلاء يذكره عادة بالاسم أو يشير إليه بما يدل على العائلة ومكانتها الاجتماعية ولا يأتي ذكر هذا النوع من الأطفال إلا عندما يسرد الكاتب قصة زيارته لاحدي هذه العائلات أما عندما يذكر الأطفال يكون القصد من هذا أطفال الشعب أولئك الذين نقصدهم نحن من هذا الكتاب يعني اولئك الأطفال الذين يملأون شوارع القاهرة وأزقتها وحاراتها وكل فجوة فيها أولئك الذين يحيطون بكل سائح يقصد التكسب والحصول على بعض المال.

يشهد الغربيون لأطفالنا بالذكاء الفطري والاستعداد للتعليم والتثقف بجميع الثقافات الاجتماعية والعقليـة اذا ما واتاهم الحظ وانفتحت لهم الأبواب المغلقة يرون هذا في نظراتهم وحركاتهم وسرعة فهمهم لما يرادلهم أن يفهموه بالاشارة أو بلغة بعيدة الصلة بلغتهم حقاً لقد شكي الأجانب من معاكسة الأطفال لهم ومن الألاعيب الشيطانية التي يأتونها في علاقاتهم بهم وقد ضاقوا بهم ذرعا ولجاءوا الى البوليس والحكومة والصحافة والكتب ولكنهم مع كل هذا وبرغم كل هذا فقد شهدوا لهم بالذكاء ولا نقول ذكاء نادراً يفوق نصيب الشعوب الأخري وانما نزعم أنه حظ لا بأس به من هذه الموهبة الفطرية .

لاحظنا أن رد الفعل عندنا بطيء يستغرق المؤثر وقتاً طويلا للانتقال على أجهزتنا العصبية إلى أن يصل المخ ويلزمنا فترة من الزمن حتى تصل المحسوسات حولنا إلى المراكز العليا من الدماغ ثم يلزم لنا وقتاً طويلا آخر حتي تصل الأوامر من المخ للعضلات بالاستجابة للمؤثر فكأن بالاسلاك العصبية فينا عطل أو خلل يمنعها أن تؤدى وظيفتها خير أداء وبأقصر فترة من الزمن ويشاهد هذه الظاهرة كل من قاد سيارة في الأرياف يرى السائق الفلاح يسير وسط الطريق فينبهه بأن يضغط على زر جهاز التنبيه . تخرج الأصوات المزعجة من هذا الجهاز كل هذا والفلاح سائر لحال سبيله كأن شيئا لم يحدث وكأن هذه الأصوات المزعجة لم تخرق

طبلة أذنه يسير على هذا الوضع بعض الوقت ثم نراه بغير داع ومن غير تنبيه ولسبب غير مفهوم يقفز من وسط الطريق إلى أحد جانبيه ويترك السيارة تمر . هذا الفلاح سمع التنبيه كما يسمعه الناس العاديون واستجاب له كما يستجيب غيره والفرق الوحيد بينه وبين غيره انما هو في أن الزمن بين المؤثر والاستجابة طويل نوعاً ما .

يظن بعض الناس خطأ أن هذه الظاهرة دليل على الغباء وانعدام الذكاء فعندما يرون الفلاحين أو ابناء الشعب لا يستجيبون للمؤثرات كما نستجيب نحن ينخدعون فيزعمون أن مستوى الذكاء عند هؤلاء اقل مما هو عند غيرهم ويخرجون من هذا بأحكام عامة خاطئة لأنها مبنية على اسس خاطئة والواقع أن الخطأ في رد الفعل أو الاستجابة للمؤثرات راجع للأمراض الكثيرة التي تنتاب اجسام الأطفال والفلاحين ثم ترجع أيضاً إلى سوء التغذية التي تعطل الأجهزه عن تأدية وظيفتها خير أداء أو ترجع إلى عاهة نشأت من هذه أو تلك أو من حادث من الحوادث الطارئة على حياة الفرد وقد يكون البطء في الاستجابة للمؤثرات راجعاً إلى انعدام الذكاء اذا انتفت الأسباب السابقة .

لم نجر اختبارات الذكاء على الأطفال الذين عملنا معهم وانما نستقرىء من تصرفاتهم العادية ومن تفكيرهم وعلاجهم للمشكلات التي تعرض لهم في حياتهم وفي نشاطهم ان عندهم قسطاً من الذكاء لا بأس به وقد يكون حكمنا في هذا الشأن سطحياً بعيدا عن التحقيق العلمي والاقيسة العلمية وانما يخيل الينا أن مقدار الذكاء الفطري عندهم يسمح لهم بالاضطلاع بشئون الحياة الضرورية في حياتهم الراهنة حياة الطفولة وفي المستقبل عندما يصبحون رجالا تلقى عليهم أعباء الحياة المصرية جميعها ونظن أن الأستاذ القباني والدكتور القوصي ورجال معهد التربية الذين أجروا اختبارات الذكاء على كثير من هؤلاء الأطفال يوافقوننا فيما نذهب اليه نظن

أنهم يتفقون معنا في أن حظنا من الذكاء يكفي لأن نصبح شعباً له مكانته المحترمة بين الشعوب .

نحن شعب مغرم بالفكاهة والضحك عيوننا مفتحة للجانب المضحك من الحياة نضحك من أنفسنا ومن تصرفاتنا نتفكه بالفقر والمرض وبالغنى والجاه نضحك من السياسة والتعليم ومن كل شيء يقع تحت بصرنا سريعو الالتفات إلى الجانب الفكاهي من الحوادث والظواهر الاجتماعية والطبيعية نتفكه بما يحدث في السماء وفي الجحيم وعلى الأرض ويكاد لا يخلو شيء من جانب يستدعي الضحك والفكاهة ولا نظن أن شعباً يجارينا في هذا ونحن في حالتنا الراهنة من الأمراض والعلل والحاجة إلى ما نتبلغ به ويغذينا فيا ترى ماذا يكون حالنا لو أمكن لنا أن نقضي على هذه العلل ونسعد بالحياة حقا نظن أنه في هذه الحالة تتجاوب الدنيا بفكاهة المصريين وتعم صدى ضحكاتهم العالية كل مكان.

حقاً إن كثيراً من هذه الفكاهات التي نتندر بها يرجع إلى الجنس والمرأة والعلاقة بينها وبين الرجل حقاً أن بعضها تمجه الاسماع وينفر منه الذوق السليم ولكن العيب في هذا يرجع إلى نوع الحياة الاجتماعية التي نحياها وإلى رأينا في المرأة وفي الجنس وفي العلاقات الجنسية ويرجع إلى أننا نعيش في عالمين منفصلين عالم المرأة وعالم الرجل ولكن هذا على أي حال يدل على أننا شعب ضحوك مغرم بالفكاهة ولا بأس من أن نتفكه بالعلاقات الجنسية أيضاً .

وحب الفكاهة والميل إلى الضحك عنصر سليم من عناصر النفس الانسانية واتجاه في الميول وفي المزاج يحسن بأية أمة أن تتعهده في أبنائها فهو دليل على حب الحياة والدنيا والرضا ببعض ما فيها أو بعبارة أخرى وجود هذا الميل الفطري ينفي وجود التشاؤم المطلق بالحياة ويدعو إلى الشعور بالجمال في بعض مناحيها وإلى التفاؤل بها وانتظار الخير على يديها فاليأس

لا يتسرب إلى أمة عندها الميل الفطري للفكاهة والضحك . مادامت لا تفقد هذه الحاسة تستطيع مثل هذه الامة أن تعيش وتجاهد وتحافظ على كيانها مهما تقلبت عليها الظروف والمحن ومهما اصابها من الرزايا ويخيل الينا اننا معشر المصريين مدينون لهذه الحاسة فينا في تاريخنا الطويل اصابنا من الحوادث الجسام مالو اصاب غيرنا لا ندثروا وقد اندثرت فعلا امم كثيرة وشعوب صنوعة ومع ذلك فقد حافظنا على قوميتنا إلى حد كبير حقا لقد تغير ديننا مرات ولكن القومية باقية وجميع الأديان تأصلت وتطورت حتى أصبحت تلائم مزاجنا كأمة .

تشاهد هذه الحاسة في طبقات المتعلمين وهم جلوس على المقاهي يتندرون ويتفكهون والشيء الغالب في مجالسهم هو الفكاهة والضحك ترن ضحكاتهم في جوانب المقاهي ثم تشاهدها ايضا بين الفلاحين المساكين المرهقين العمل والذين لاتقوى ابدانهم على عمل مستديم شاق للعلل والامراض الكثيرة التي تعمل في ابدانهم من غير انقطاع تراهم يضحكون ويقهقهون رغم ضعف ابدانهم من سوء التغذية ولو كانوا صحيحي الابدان خالين من العلل تتوافر لهم عناصر التغذية الكافية لاهتزت جوانب الوادي بهذه الضحكات .

وتشاهد هذه الظاهرة في اطفال الشعب ايضا هؤلاء الذين يكادون يكونون محرومين من كل شيء تقريبا لقد اغفلتهم الدولة واغفلهم الشعب واغفلهم اهلوهم واصبحوا كالمنبوذين ومع ذلك تجدهم يضحكون ويتندرون ويستبشرون بالحياة ويتفاءلون بها ويرجع كثير من تصرفاتهم التي يشكو منها الكبار إلى هذه الحاسة التي يعملون على اشباعها والاستجابة لداعيها نعم يضحك الصبيان في كل مكان وفي كل زمان ويضحك اطفال الشعوب الاخرى ايضا كثيرا ، ويعملون « المقالب » في الكبار والصغار بغرض الفكاهة ولكننا نظن أن هذا مرجعه عند هؤلاء إلى الحيوية الفائضة فيهم وإلى السعادة والرضى والاطمئنان الذي يشيع في بيئتهم وإلى الصحة وسلامة

البدن وخلوه مما يحد من هذه الحيوية فيهم اما اطفال الشعب عندنا فلا صحة عندهم ولا سعادة تملأ بيوتهم ولا غذاء صحيا مناسبا يتوافر عندهم فيبث فيهم الحيوية والنشاط فاذا ضحكوا أو تندروا أو دبروا الالاعيب الشيطانيه لهذه الغاية فانما يفعلون هذا على ما نظن استجابة لداعية الفكاهة واشباعا لهذا الحافز الفطرى فيهم .

ويسير جنبا إلى جنب مع هذا الميل الفطرى ميلهم إلى الموسيقى الآليه والصوتية وما تثيره فى نفوسهم من الطرب والنشوة لقد كتبنا كثيرا فى هذا وكتب غيرنا اقدر منا فى الموسيقى المصرية وكيف انها لاهم لها إلا الشكوى والتعبير عما يملك علينا نفوسنا من الحزن والاسي يدور معظمها حول هجران الحبيب واغفاله لامرنا كل الاغفال هي عبارة عن اشهاد الناس على هذا الصد واستعطاف للحبيب حتى يرضى عنا ويسامحنا عن ذنب لم نجنه يتذلل فيها المحب ويبكى وينوح ويذرف الدموع ويتمرغ فى التراب عسي أن يرق قلب المحبوب ويستجيب له ليس لانه اهل للحب أو لان فيه من قوة الرجولة وأسبابها يجذب اليه أعجاب الحبيب وحبه وانما عطفا على ضعيف ذليل بائس قد يستحق العطف والرثاء .

لا يدخل فى باب هذه الموسيقي وصف الطبيعة أو النيل أو شعب وادى النيل لاتسمع منها التغنى بالجدود والتفاخر بما صنعوا وما تركوا لنا ولغيرنا من آثار تدل على عظمتها وعلى اننا شعب له جدود ليس مثلهم جدود ، لم نر الموسيقي عندنا اثر في حاسة الفكاهة فينا لم نحاول بطريقة من الطرق اشباع حاسة الضحك فينا فنضحك ونحن نغنى ونغنى لكي نضحك ماحاولت الموسيقي أن تثير فينا حب العمل وصلاح الحال والجهاد للحياة بكل انواع الجهاد ما حفزتنا قط على مواجهة الصعاب والتغلب عليها والقضاء على ما يقف فى سبيلنا من معطلات وما اثارت فينا الشعور بالرضي عن النفس للجهود التي بذلناها والأغراض التى وصلنا اليها لم نفعل هذا أو شيئا من هذا ونظن انها لم تخدم فينا غرضا اخلاقيا أو اجتماعيا أو قوميا .

وبعد فهي موسيقى للسمع وليست للتعبير عما يجول في نفوسنا هي موسيقى نذهب لسماعها وندفع ثمن هذا السماع فنطرب وتنتشي نفوسنا وليست ملكا لنا كجماعة أو شعب نغنيها معا كجماعة وشعب نذهب إلى دور الموسيقى لنسمع أم كلثوم وعبدالوهاب ونشعر أننا أخذنا لمعة تعادل ما دفعنا من ثمن وبعبارة أخرى نجتمع لنسمع لا لنغني وليس العيب في السماع لأن جميع الشعوب تستمع لأهل هذا الفن فيها وانما العيب اننا لا نغني معا كشعب في الشوارع والمنتزهات والمجتمعات العامة فيشعر الواحد منا أنه لازم لسعادة هذه الجماعة وأن الجماعة ضرورية لاشباع رغبته في الموسيقى . في بيئتنا هذه وجود الناس وعدمهم سيان وكل ما بهم من الأمر وجود المغني أو الموسيقى وجود عبد الوهاب أو أم كلثوم أو سامي الشوا لقد انتشرت الموسيقى في الغرب لأن أفراد الشعب يساهمون فيها وضاقت حدودها عندنا لأنها قاصرة على المحترفين الموهوبين وهؤلاء بطبيعة الحال نادرون في كل أمة وشعب.

كل هذا صحيح وكل هذا حاصل عندنا ومع هذا فالذنب في هذا ليس ذنب الشعب فهو مغرم بالموسيقى مولع بها حتى أنه بعد أن يئس من قادته الموسيقيين استنبط لنفسه نوعا منها يغنيه ويسلي نفسه به وما المواويل في الأرياف والبنادر والكلام الموزون الذي يكرره الأطفال وغيرهم إلا محاولة من أولئك وهؤلاء لاشباع هذه الحاسة فيهم فالمرأة تغني في بيتها والرجل يغني في عمله والفلاح يغني في حقله والطفل يغني في الشارع أو في المصنع ولا يغني هؤلاء لانهم يشعرون بالسعادة والرضى عن الحياة والاطمئنان اليها وانما نظن انهم يفعلون هذا لأن حاسة الموسيقى فيهم قوية لا يملكون إلا أن يستجيبوا لها لا بل لا يستطيعون اغفالها أو اهمالها.

وقد وجدنا أن أطفال الشعب يقبلون على الموسيقى في أي مظهر كانت يحبون أن يستمعوا إلى المغنين في الاسطوانات وفي الراديو ويكررون ما يسمعون في العابهم وفي خلواتهم ثم وجدنا أنهم مستعدون لتعلم الموسيقى الجماعية يستعدون لأن يغنوا جماعة متى وجدوا القيادة اللازمة لهذا الضرب

من النشاط بالطبع لا ينتظر منهم الاجادة والابداع فى هذا الفن وذلك راجع إلى درجة ثقافتهم الاجتماعية وإلى انتفاء هذا النشاط من بيئتهم وإلى خلوها منه ومع ذلك وبرغم كل هذا يقبل الأطفال على الغناء الجماعي بشغف واضح يحسه كل من يتصل بهم بشرط أن تكون النفهات محبوبة مفهومة عندهم وبشرط أن يكون الكلام الذي يغنونه متصلا بحياتهم كل الاتصال.

من حسن الحظ أن الشعب المصرى مولع بالموسيقى ومن حسن الحظ أيضاً أن عنده الدافع الفطري لهذا الضرب من التعبير عن الخواطر النفسية ونود أن لا تعمل ظروف الحياة على قتل هذا الميل فينا ثم نأمل أن يقيض الله لنا شخصاً له من المواهب الموسيقية الفطرية ومن الثقافة الواسعة ومن الحب لخدمة هذه الأمة ما يجعله يقامر فى هذا الميدان ويكلف نفسه مشقة الجهاد لتفهم مزاج الشعب فى الموسيقى وتوفير الأغانى الشعبية النافعة له وتدريبه على الغناء كشعب وكأمة وكجماعة لا كأفراد مستقلين منفصلين عن بعضهم البعض.